المحاضرة السادسة

البناء الفني للقصيدة الجاهلية:

لقد التفت النقاد القدامى إلى محتوى القصائد العربية الأولى فوجدوا أن الشعراء اختطوا لأنفسهم أسلوبا ألزموا أنفسهم به وفرضوه شكلا بصورة طوعية لا قسرية على من جاء بعدهم من الشعراء، فمن المعلوم أن القصيدة العربية تبنى من ثلاثة مقاطع، مقطع الافتتاح ومقطع الرحلة ومقطع الغرض.

فقد بدأوا القصائد بمقدمات أشبه بالافتتاحيات المعروفة دون الهجوم على الموضوع دفعة واحدة وهو السابق أي الشاعر الجاهلي لمن سواه في هذا المضمار يتوغل في أعماق عالمه الشعري بمقدمة طللية غزلية يذكر فيها الديار والأهل والحبيبة مظهرا من مظاهر التزام الشاعر بوطنه وناسه وقد يقف على الطلل مستنطقا متسائلا.

ثم يبدأ الرحلة مع رفيق أو رفيقين يقهران الصحراء الموحشة على ظهر ناقة قوية تشبه في هولها وصراعها ضد العطش والحر والتعب والسهر ووحشة الصحراء ثورا وحشيا هاجمته كلاب ضارية بأنيابها ومخالبها يتبعها صياد قوي بارع في المهنة وقد يشبه الشاعر ناقته بنعامة أو ظليم تعرض لعملية قنص أو صيد من بشر أو وحش وربما رحل الشعراء على فرس يشبهونها بطائر مسالم كالقطاة أو اليمامة اعترضها صائد من جوارح الطير صقر أو باز أو سواهما.

ثم تستمر القصيدة في نموذجها الفريد هذا حتى تنتهي إلى غرضها المنشود من مديح أو رثاء يتخلل ذلك فخر بالقبيلة وهجاء لأعدائها ووصف دقيق لما تقع عليه عين الشاعر واستنفار لقومه ضد الجور والظلم واستنهاض للهمم من أجل الثأر وهكذا حتى تصل القصيدة ذروتها ثم تبلغ الخاتمة.

وتبرز هذه الظاهرة في شعر النابغة وزهير ولبيد وأوس بن حجر وعبيد بن الأبرص بشكل بارز جدا وقد نقل كعب بن زهير وغيره من مخضرمي الشعراء هذا النموذج إلى المسلمين فتقبلوه راضين عنه متسامحين فيه وأجازه له الرسول صلى الله عليه وسلم وكافأه على ذلك بجائزة تقديرية وذلك عندما وقف يمدحه بقصيدته المشهورة والتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

فبدأ القصيدة بالغزل مع أنه إزاء أعظم شخصية عربية فقبلت منه وصارت سنة متبعة لدى الشعراء إلى اليوم، ولو بحثنا عن مثل هذه الظاهرة في النثر لما وجدناها إذ إن الخطبة مثلا عرفت طريقها إلى الإسلام واتخذت طابعه من أول وهلة .

ولم تكن الأغراض التي تناولها الشاعر الجاهلي في أعماله الشعرية بعيدة عن حياته العملية ولا عن مجتمعه الذي كان يعيش ويحيا فيه بل جعل موضوعاته نابعة من قلب الأحداث التي كان يعيشها، وكان المديح من أقوى الوسائل التربوية التي يستخدمها المجتمع العربي آنذاك من خلال الموهبة الشعرية في تثبيت القيم العربية ونشرها فكانت صفات الممدوح هي النموذج المنشود في ذلك العصر يتألق في ذهن كل عربي ليكون واقعا ممكنا لجميع الناس.

أما خواتم القصائد العربية القديمة فلم تكن القصيدة قد عرفت الخاتمة ذات النهاية المغلقة بل كانت الخاتمة المفتوحة دائما أمام أنظار الشاعر القديم لذلك كانت القصيدة تنتهي فجأة وهي في غاية تدفقها لكي لا توحي بنهاية مسدودة بل توحي بانفتاح الحياة التي لا تقف عند حدود، وفي المراحل الأخيرة من العصر الجاهلي عرف الشعراء الخواتم المسدودة التي غالبا ما تنتهي بحمكة.

<u>الخصائص الفنية للقصيدة الجاهلية:</u>

<u>١-وحدة الموضوع:</u>

الحديث عن وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية يقتضي تحديد المعنى المقصود بهذه الوحدة لأن التحديد هو الذي يعطي المجال الواضح لفهمها ولأن المفهوم السائد في عصرنا يخالف المفهوم المتعارف عليه عند القدامى من الشعراء، فالشاعر الجاهلي في حديثه عن المديح يتطرق إلى موضوعات تعد في بناء القصيدة لازمة من لوازمها لأن الشاعر المجيد في عرف النقاد القدامى من سلك هذا الأسلوب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد كما يقول ابن قتيبة.

ولهذا كان الشاعر يبدأ فيها بذكر الديار ليتحدث عن الطلل والدمن والآثار ليستثير في نفسه لوازم الإثارة ويؤجج نوازع الاندفاع ويعيد إلى الذهن صورة الماضي الداثر الذي يجد الشاعر في تذكره راحة نفسية كبيرة ويتحدث عن خروجه إلى الصحراء الفسيحة التي يتيه

فيها الدليل العارف وتهلك من سعتها الناقة الموثقة ولعل هذا التصور في رسم الناقة هو الذي حمله على نعتها لكل صفة قوية ومنحها كل خصلة تحمل دلالات القدرة على التحمل.

ولعل هذا أيضا هو الذي جعل الشاعر يلح في تأكيد هذه الخصائص لتكون الصورة أوسع والألوان أشد وأقوى وقد وجد الشعراء في صورة الصياد وهو يطارد الصيد لوحة ناجحة في تثبيت المقدرة لهذه الناقة ، وكان الشعراء يجهدون أنفسهم في تلوين أبعادها بما يرونه مناسبا فيلونون زوايا الصورة ويحشدون لها من الأصوات والحركات والأجزاء الدقيقة ما يكشف عن إمكانية استيعابها لمثل هذا الأداء الفني فإذا استكمل الصورة واستطاع أن يجمع عناصرها من توثب الصياد وتحفزه وترصد الكلاب بدأ في وضع الإطار الفني لصورة المطاردة وتهيئة الجوانب الموحية لعملية الملاحقة .

كل هذه الموضوعات المتداخلة يتابعها الشاعر بمهارة ويعد لها بدقة ويسخر لها من الوسائل ما يعطيها القدرة على التعبير الجيد وإن اختلفت سعتها عند الشعراء وهم يعالجون الموقف ذاته أو اختزنت بعض أجزائها لأن الشعراء لهم فيها مذاهب فمنهم من يطيل في سرد الحوادث ويسرف في وصف اللوازم وترتيب الأدوات حتى تكون الصورة متكاملة .

إن هذه التهيئة الدقيقة لمعركة الثور مع الكلاب تنتهي في قصيدة المديح بانتصار الثور وقتل الكلاب وخروج الثور من المعركة مظفرا علت على وجهه نصاعة الانتصار ولمعت في عيونه ملامح الفوز أما الكلاب فهي بين مقتولة تمزق جسمها وتدفق دمها وتشققت فرائصها وبين مهزومة لا تلوي على شيء تطلب النجاة وتفكر في الخلاص بعد أن أيقنت بفشل المعركة وانهزامها خائبة خاسرة بهذا الثور الذي يشبه الناقة وبهذه السرعة التي خرج فيها من المعركة يطرق أبواب الممدوح ويقطع المفاوز التي تفصل بينه وبين الشاعر وبعدها يبدأ بحديث الممدوح إذا أراد المدح وبحديث الهجاء إذا أراد الهجو وبحديث الفخر إذا رغب فيه ، ومن هذا التداخل الموضوعي في معالجة الغرض الذي من أجله نظم القصيدة .

تلوح وحدة الموضوع في ذهن الشاعر التي استخدم لها هذه اللوازم والتي تبدو في أذهاننا مجزأة مفصولة وفي عرف القدامى من النقاد مترابطة متصلة ولعل أسباب الانفصال في مفهومنا هي ظاهرة من ظواهر البعد الزمني الذي فصل بين مفهومين غير متقاربين.

٢-الارتباط بالأرض

يعد الطلل بالنسبة للقصيدة الجاهلية بداية المرحلة الشعرية التي تمر من خلالها أحاسيس الشاعر الجاهلي وتبسط بعدها أفكاره لتتناسق بعدها في إطار موضوع متكامل ومن الطبيعي أن تسهم خفقات الطلل المتناهية وهي تبدو في شكلها المتقادم في خلق المناخ العاطفي المنبعث من هذه الإثارة ، وقد وجد الشعراء في مثل هذه المواقف ما يثير عواطفهم الحادة ويلزمهم بالوقوف عند هذه القطعة الزمنية العزيزة التي ذابت بين حناياها أعز الأيام .

ولم يكن البكاء أو النحيب أو الوقوف عند هذه البقايا الطللية عاطفة آنية ضائعة أو وقفة تأملية عابرة تحفزها دواعي الوقوف أو تثيرها أسباب التأمل ولم تكن هذه المشاعر ذاتية ضيقة يعانيها الشاعر بصورة منفردة أو يتحسس ألامها بشكل مجرد وإنما هي ظل حزين يلف نفس الشاعر وهو يقترب من هذه البقايا .

لقد أصبحت لوحة الطلل بكل صورها وألوانها تؤدي وظيفة خلق هذا الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على قول الشعر لأنه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات ويدور في ذهنه من الأفكار والحوادث.

فالحنين إلى الطلل يمثل الحنين إلى الوطن لأن الطلل وما يحيط به وما يتناثر حوله من الدمن يمثل مجموعة من الذكريات التي عاشت في ذهنه فحفظ لها أجمل الأوقات وأسعد الأيام فلا غرابة إذا وجدنا الشاعر الجاهلي يبرز ذاتيته ويفرغ شخصيته محاولا بذلك إثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء التي لم يضمن فيها مسكنا يلم حياته الضائعة وسط رحلة لا تستقر وتنقل لا يقف.

والواقع أن وقوف الشاعر الجاهلي عند إطلال أحبته أو بكاء دياره التي هجرها أو اضطر إلى هجرها لم يكن غريبا لأن الطلل عند قطعة من الحياة التي تهرم كلما مضى منها جزء لا يستطيع الإنسان رده مهما حاول، فكأن البكاء على الطلل أصبح يعني البكاء على الحياة نفسها، وكأن البكاء على الحياة يمثل نقطة الانطلاق في تفكير الشاعر الجاهلي فهو ينظر إلى الطلل ويحس بعمق الحالة التي تصادفه.

لقد أصبحت المسالك الاستفهامية من حيث الصياغة تمثل الخطوط الواضحة في المنهج الوصفي للطلل وقد صارت علاماتها بارزة في كل وصف يستخدمها الشاعر بشكلها ومضمونها متخذا منها نقلة لفظية ناجحة، إن صياغة لمن طلل ولمن الديار وغيرها تمثل

شكلا منهجيا واحدا من الأشكال التي كانت تقف أمام كثير من الأعمال التي أقدم عليها الشعراء وهي تمثل في صياغتها التساؤل الضائع الذي كان يدور في رأس الشاعر.

٣-الاتجاه القصصي:

يكتنف بعض قصائد الشعراء حوار قد يكون في بعض الأحيان بسيطا لا يخرج عن نطاق المساجلة الآنية والفكرة المغلقة والتأثر الذاتي وقد يكون طويلا تنبعث منه فلسفة الشاعر وتبرز من ملامحه قدرته الخلفية وتأتلق من خلاله ملامح الإصرار الذي دفعه إلى هذا السلوك.

وقد يظن البعض أن هذا الحوار بشكليه البسيط والطويل هو حوار حقيقي استحدثته الفكرة المؤقتة أو أوجبه العقاب الانفعالي أو خلقه الظرف المناسب ولكنه حوار متخيل لا وجود للنسوة اللاتي تخيلهن الشاعر ويمكننا أن نعد هذا التخييل من المحاولات الأولى في الحوار الشعري بالنسبة للأدب العربي.

ولعل أكثر الحوار الذي استخدمه الشعراء كان يعتمد التجريد الذي يختلقه الشاعر ليؤكد في نفسه صفة مشهورة فمحاورته للفرس والغول يؤكد فيهما شجاعته ومحاورته للذئب يؤكد إكرامه للضيف ومحاورته للمرأة التي تظهر خوفها من المخاطر يؤكد بطولته وكل محاولة من محاولات الحوار هذه تظهر صفة من صفاته وتؤكد رمزا من الرموز التي قدمها مستخدما أسلوب التجريد الذاتي الذي أحس فيه قدرة على التعبير ومجالا لمخاطبة الذات.

والشاعر يحرص على أن تكون وسيلته اللوم ويحرص على استخدام الفعل (لام) ومشتقاته في بداية حواره وهو يحرص كذلك على إخفاء الصورة الأولى التي لا يذكرها أبدا وإنما يكتفي بتقديم حجته بعد أن يمهد لذلك بما يشير إلى اللوم ويحرص كذلك على أن يقع اللوم ليلا، والشعراء يصرون على أن ظاهرة اللوم هذه لم تكن في محلها مهما كانت الدوافع ويؤكدون استمرارهم على السلوك الذي ليموا عليه غير آبهين بما يقال عنهم.

ويعد الشاعران حاتم الطائي وعروة بن الورد من النماذج الشعرية التي التفتت بشكل واضح إلى هذا التجريد لتأكيد صفة الكرم وصفة الشجاعة، وقد أخذت صورة التجريد أشكالا متباينة واتجاهات مختلفة ولكنها تلتقي عند ظاهرة اللوم وتختلف عن الصفة التي يلام عليها وهي التي تحمل المرأة على هذا اللوم ولهذا كان حاتم الطائي يجرد شخصية المرأة اللائمة على إنفاقه وبذله وكرمه وعروة بن الورد يجرد شخصية المرأة اللائمة على غزوه وخوضه غمار الغزو.

إن حاتم الطائي في تجريده يمسك بخيوط الأسلوب الشعري المحسوس ويستخدم الألفاظ الشعرية الموحية ويوافق بين تسلسل الأفعال بصورة فنية منسقة، ونرى الأمر جليا في قوله:

وَعاذِلَـــةٍ هَبَّـــت بِلَيـــلٍ تَلـــومُني وَقَـــد غـــابَ عَيّـــوقُ الثُرَيّـــا فَعَـــرَّدا

تَلـــومُ عَلـــى إِعطـــائِيَ المـــالَ ضِـــلَّةً إِذا ضَـــنَّ بِالمـــالِ البَخيـــلُ وَصَـــرَّدا

تَقـــولُ أَلا أَمسِـــك عَلَيـــكَ فَـــإِنَّني أَرى المـــالَ عِنـــدَ المُمسِـــكينَ مُعَبَّـــدا

أما الشاعر الآخر فهو عروة بن الورد لننظر إلى قوله أيضا:

أَقِلّـــي عَلَـــيَّ اللَـــومَ يـــا بِنـــتَ مُنـــذِرٍ وَنـــامي وَإِن لَـــم تَشـــتَهي النَـــومَ فَاِســـهَري

ذَرينـــي وَنَفســـي أُمَّ حَسّـــانَ إِنَّنـــي بِهـــا قَبـــلَ أَن لا أَملِـــكَ البَيـــعَ مُشـــتَري

أَحاديـــثَ تَبقـــى وَالفَتـــى غَيـــرُ خالِـــدٍ إِذا هُـــوَ أَمســـى هامَـــةً فَـــوقَ صُـــيَّرِ